على رصيف الحلم

• بسمة الخطيب

جلستُ على الرصيف. ولم أهتمَّ لنظراته المرتابة. صحيح أنّه طردني، ولكنْ بلطف. كم كنتُ ساذجةً حين توقّعتُ أن أقابل رئيس مجلس الإدارة من دون موعد أو توصية. قال لي إنّ أحدًا لا يدخل إلى هذه المؤسّسة الإعلاميّة إلاّ إذا كان «مدعومًا،» وغمز بعينه، ففهمتُ. ولكنّي لم أجد سوى عمود الكهرباء داعمًا لي أمام باب المؤسّسة.

أحسستُ برغبة في الغناء، فرحتُ أغنّي بصمت: «يا حبيبي أنا عصفورة الساحات، أهلي ندروني للشمس وللطرقات...» هكذا هي فيروز، تأتيني كغمامة تظلّلني وكشلاّل فرح ينعشني. وعندما ترنمتُ بتلك الأغنية التي كنتُ في طفولتي أتصوّر أنّ بطليْها هما أمي وأبي، رجعتُ إلى سريري الدافئ وليالي الحيرة الباردة: «يا حبيبي شو نَفْع البكي، وشو إلو معنى بَعْد الحكي، مازالا قصص كبيرة.. تخْلص بكلمة صغيرة.. حبّوا بَعْضُنْ تركوا بَعْضُنْ.» كانت أمّي تحبّ الأغاني الحزينة، وهذه الأغنيةَ بالذات. في تلك الليالي كنتُ أستيقظ لأسباب مجهولة فأَشْعر بوحشتها. أستدير بجسدي الصغير نحوها، أبحثُ عن عينيها في العتمة، أراهما رطبتيْن ولا أفهم سرّ بريقهما. تقول «اقرإي الفاتحة خمس مرات وستنامين في الحال.» أقرأها وأردّد تلك الجملة كالمعتاد: «نَمْ يا عبد اللّه واتّكل على اللّه.» تنام عائلتي متّكلةً على اللّه، أما أنا فأناجيه بصوت خفيض. أحرّك شفتيّ من دون أن أنطق، خشيةَ أن أوقظ إخوتي من نومهم: يا ربّ لماذا لا تجيبني أمي عن تساؤلاتي؟

في الصباح التالي تروح تتنقّل بين الموقد والمجلى، تغني مع المذياع وتبكي معه. تردّد لي أنّ أهمّ شيء في هذه الحياة هو العِلْم وأنّ عليّ أن أتعلّم كلّ شيء. علّموني في المدرسة أنّ الأرض كرويّة، وأنّ الفصول أربعة، وأنّ الغيوم تُحْدث البرقَ والرعدَ وتَنْثر المطر. كان هذا قبل أن تقفل مدرستي ويتركَ أهلُ الضيعة بيوتهم وحقولهم بسبب الحرب.

يومَ ودّعتْني طفولتي وَدّعت الحربُ بلدي. هكذا أعلن المذياعُ، رفيقُ أمي الدائم المتنقّل معها بين غرفتيْ بيتنا، الذي كان ينقل إلينا ما يدور خارج ضيعتنا الصغيرةَ ويَطْلب من بيروت، ستِّ الدنيا، أن تقوم من تحت الردم لأنّ الثورة تولَدُ من رحم الأحزان.

ما هي هذه الدنيا ومن هي بيروت؟ لمن هذه الدنيا ولمن بيروت؟

ظلت هذه الأسئلة تؤرّقني حتى أنهيتُ دراستي الثانويّة في ضيعتي والتحقتُ بالجامعة اللبنانيّة في بيروت ـ كلية الإعلام كما أرادت أمي. هناك عرفتُ بيروت وتعرّفتُ إلى دنياها. وبعد أربع سنوات عرفتُ الأحزانَ ورحمَ الأحزان.

مضتْ سنواتٌ منذ تخرُّجي ومازالت الأسئلةُ تزدحم في ذهني. أسمع غطيطَ أمي ولا أريد أن أسألها لماذا حدثت الحرب، لأنّني أحسّ أنّها ستتألم. اليوم لا يَشْغلنا إلاّ إيجادُ عمل يناسب مؤهّلاتي. ولكنّ المؤسّسات المحترمة لديها شروطٌ غريبةٌ للتوظيف، أهمُّها أن يكون لديّ «مرجع» وطنيّ، أو أن أَحْمل توصيةً ما، إضافةً إلى سنوات الخبرة. ومن أين لي بهذه الخبرة؟

في كل مرّة أعود إليها خاليةَ اليدين أَعِدُها بأنّني لا بدّ أن أعود غدًا بخبر مفرح. لمثل هذه الأسباب اخترع الإنسانُ الكذب. قلتُ لها: «لقد وافق. أعطاني فرصةَ شهر تحت التمرين، وبعد الشهر سيوظّفني. يقول إنّي نشيطة وذكيّة.»

مضى الشهر وأنا أتردّد على بيروت. أُوهم أمي أنّي ذاهبة إلى الإذاعة، وأنّها ستَسْمعني قريبًا أذيع الأخبار، أو أُعلن بدء برنامج ما، أو أدير ندوةً ما. ولكنْ كيف سأواجهها غدًا عندما تفتح مذياعَها لتبحث عن صوتي ولا تجده؟ لأجل هذا أنا متسمّرة هنا بانتظار مدير الإذاعة. سأستعطفه كما فعلتْ تلك المتسوّلة التي اضطرتني لأن أعطيها إحدى ورقتَي المال اللتيْن كانتا بحوزتي، فأُجبرتُ على العودة مشيًا. كل هذا من أجل القلب الذي تقاسمتُ دماءَه وأنا جنين، وأحسستُ بوحدته وأنا طفلة، وذقتُ آلامَه وأنا شابّة.

يمزّق صوتُها سكونَ صدري عندما أَذْكر كلماتها: «أريدكِ أن تدرسي الإعلام، وتقولي الحقيقة لمن لا يعرفها، لمن يخشى أن يسمعها.» هذا كان حلم أمي: أن تَسْمعني عبر مذياعها الذي لم تبدّله، المذياع الذي نَقَلَ إليها إعلانَ تأميم قناة السويس ونبأَ احتلال القدس وموت عبد الناصر ومعاهدة كامب دفيد واجتياح بيروت ومجزرة قانا وأغاني أم كلثوم وعبد الحليم، ونقل إليها أخيرًا اندحار العدوّ الصهيونيّ من الجنوب.

أجول في شوارع بيروت الباردة. يرتطم رأسي بالأبواب المغلقة.

كم أنا بحاجة إلى حضنك يا أماه، إلى حكاية حكيتها لي في زمنٍ ما وانتهت بالتبات والنبات.. إلى الجملة التي كنتِ تخدرينني بها كي أنام هانئة. ولكنْ أخبريني، أولاً، في أيّ زمن تنتهي القصصُ بالتبات والنبات؟ إنَّني لا أجد لهذا الزمن أيَّ أثر. لماذا كذبتِ عليّ؟ لماذا قلتِ لي إنّ بيروت جميلة؟ ها أنا اليوم في بيروت، أتسكّع في شوارعها، أبحث عن مكان يؤيني ولا أجده، أمدّ يدي لأهلها لأعطيهم فلا يلتفتون إليّ. هي مدينة لا تحبّ أن يعطيها أحد. مدينة ترحّب فقط بمن يأخذ منها ويحتال عليها.

في الشوارع التي عَبَرتُها اليوم رأيتُ القذائف والصواريخ والدبابات والحرائق والشهداء، وربما أبي! صحيح أنّ كل شيء عاد برّاقًا سليمًا لا خدش فيه، إلاّ أنَّني رأيتُ الحرب كما كان يُحكى عنها. وأحسستُ أنّ قلب أبي مازال يحتفظ برصاصة، وأنّه ينتظر مَنْ يرممه. لو أجدك اليوم يا بابا لقلتُ لك إنّ قلبك صغير وأنْ لا أحد يهتمّ بالقلوب الصغيرة.

مرّت النجمات التلفزيونيّات والإذاعيّات مبتسمات. بقيتُ جالسة.

وأخيرًا ها هو.

ركضتُ إلى سيارته وهو يهمّ بالصعود إليها: مرحبًا. هل تَذْكرني؟ تقدّمتُ بطلب منذ شهور عندما طلبتم موظفين للعمل في الإذاعة. أريدكَ أن تسمعني لثوانٍ.. أرجوك.

نعم، قالها بتجهُّم.

ارتبكتُ ثم قلت: لا أريد سوى أن تعطيني فرصة. لا أريد وظيفة ولا معاشًا ولا ضمانات. لا شيء سوى كلمة نعم. أرجوكَ قلْها لي. اعتبرْني متمرّنة.

ـ ولكنّكِ لستِ الوحيدة التي تريد أن تتمرّن. لديّ المئات من أمثالك.

ـ ولكنْ أنا بحاجة ماسة إلى العمل. إنَّها أمي..

ـ أمّك؟! ما شأني أنا بكِ وبأمك؟

وانطلقت السيارة.

هذه الليلة لن أرى ابتسامة أمي.

دخلتُ أتلمّس طريقي في الظلام. الجميع نيام. وحده المذياع يهمس. فتحتْ عينيها. هذه المرّة لن أدَّعي أنَّني لا أفهم سرّ بريقهما. قالت بصوت متهدّج: كنتِ تكذبين عليّ.

لم تنتظر منّي أن أدافع عن نفسي. كانت تعلم أنَّني لا أملك جوابًا. لذلك مدّت يدها نحوي وَدَعَتْني لأنام قربها.

• بسمة الخطيب

عندما دخلتُ فراشها فوجئتُ ببرودته. ارتجفت. غرستُ أنفي في فستانها العتيق فامتلأتْ رئتاي برائحة الأمومة. عدتُ تلك الطفلةَ التي تأبى أن تنام قبل أن تجد أجوبة عن كل أسئلتها. لكنّني منذ اليوم لن أسأل، منذ طارت تلك السيارة وتركتني أتعثّر بغبار الطريق، منذ ارتعش جسدي تحت شمس آب في مدينة ترتدي الضباب صيفًا وشتاءً ولا تعرف كيف تخلعه.

النشيد الوطنيّ يعلن نهايةَ الإرسال. انتهى الإرسال، أماه. أقفلي مذياعَكِ. فـ«كلّنا للوطن،» ولكنّ الوطن ليس لنا.

لا وطن لي. فاحضُنيني أكثر كي أشعر بالوطن. دفّئيني. لماذا أنتِ باردةُ الليلة؟

الليلة أريدكِ أن تبكي وأبكيَ معك. ابكي، لن ير أحدٌ دموعَكِ في هذه الليل. لن يعود أبي ليدافع عنّا. هل تذكرين عندما كنّا نتشاجر؟ كنتُ أترك البيت وأقول إنّي ذاهبة للبحث عن أبي ليُنْصِفَني. وبعد أن أتعب من البحث أعود إليكِ. أقف عند الباب بانتظار أن تسمحي لي بالدخول، ولكنّكِ لا تلتفتين إليّ. تتابعين عملَكِ وكأنّ شيئًا لم يكن. وفي الليل عندما أشكو إليكِ تعبَ رجليّ من المشي تضمّينني، تبثّين حنانَ جسدكِ في السرير ليتنعمّ به أطفالُكِ الصغارُ وينسَوْا دفءَ أبيهم الغائب. إنّ رجليّ تؤلمانني كما في الطفولة، فهاتي حنانَكِ. لديّ شيء أخير أقوله لكِ: سامحيني لأنّني خذلتكِ. سامحيني لأنّني سأباشر منذ الصباح العملَ في دكّان العمّ أبي جميل لأسجّل أسعارَ السكّر والسمْن والمحارم وأدوّنَ الفواتير كما كان يلحّ عليّ وكنتِ أنتِ ترفضين.

توقعتُ أن تنتفض عندما تسمع هذه الجملة. لكنّها نامت. وأنا أيضًا سأنام.

أطلّ الصباح. لم يكن مذياع. ولم تكن فيروز.

يسلّم عليّ أبو جميل. يشدّ على يدي معزّيًا ويضيف مطمْئنًا: مكانُكِ في المحلّ محفوظ.

أَضْحكُ من شدّة الوجع وأسأله: ألا تحتاج إلى توصيةٍ وشهادةِ خبرة؟

بيروت